﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ۝٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ۝٤١﴾ [الكهف: 40 - 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

مـــن اغـتـنَـى طـغَـى، ومـن أظهرَ الافْتِخارَ، كـــان حَـــريًّـــا بالهَلاكِ والبَوارِ

لَمّا أقَرَّ الرَّجُلُ المُؤْمِنُ بعَجْزِه وافْتِقارِه إلى مولاهُ سبحانه في قولِه: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا﴾، في مقابِلِ ما أظهَرَهُ صاحبُهُ الكافِرُ مِنَ التَّقَوّي والافْتِخارِ؛ بيَّنَ أنَّ من كان هذا حالهُ من إظهارِ الافتقارِ إلى اللّه تعالى حَريٌّ أن يُكْرِمَهُ اللّهُ ﷻ ويُبَدِّلَ حالَهُ إلى حالٍ أفضلَ، وحقيقٌ بمَنْ أظْهَرَ الافتخارَ أن يُهْلِكَ اللّهُ تعالى ما افْتَخَرَ به ويُبيدَهُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُسۡبَانٗا﴾: (حسب) تدُلُّ اشتقاقاتُها على معانٍ، منها: العَدُّ[2]، ومنه: الحِسابُ؛ وهو استعمالُ العَدَدِ[3]، ومنه أيضًا: الحَسَبُ؛ وهو الفَعال الحَسَنُ لَهُ ولآبائه، مَأْخوذٌ من الحِساب؛ وذلك لأنَّهم يَعُدّون ذلك في مَناقِبِهم[4]، والحِسابُ مصدرٌ بمعنى المُحاسبة، والمرادُ به: عَرْضُ كلِّ أعمالِ الشَّخص وتقويمُها[5]، والحُسْبانُ: المَرامي والصَّواعِقُ التي تَكونُ مِنَ السَّماء، ولِذا قالَ ابْنُ عَبّاسٍ في تَفْسيرِ قولِ اللّه تَعالى ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: نارًا مِنَ السَّماء[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حسب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حسب).
(6) الواحديّ، التفسير البسيط: 14/ 23.

2) ﴿صَعِيدًا﴾: (صعد) تدلُّ تصريفاتُها على ارتفاعٍ ومشقَّةٍ، ومنه: الصُّعود، وهو ضِدُّ الانْحِدار[1]، ويُطلقُ الصَّعيدُ على وجه الأرض، ومِنه قولُ الله تَعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، والصَّعيدُ: الأرضُ المُسْتَوِيَةُ، يُقالُ للحَديقَةِ إذا خَرِبَت وذَهَبَ شَجَرُها: صارَتْ صَعيدًا؛ أَيْ: أرْضًا مستويةً، ومنهُ قولُهُ سُبْحانَه: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[2].

3) ﴿زَلَقًا﴾: (زلق) تدلُّ اشتقاقاتُها على تزلُّجِ الشَّيءِ عَن مقامِه[3]، والمَزْلَقُ: المَكانُ الدَّحَضُ، والمَزْلَقَةُ: المَدْحضَةُ التي لا تَثْبُتُ عليْها قَدَمٌ، والزَّلقُ في قولِ الله تَعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ معناه: أَرْضًا ملساءَ دحَضًا ليسَ بها شَيْءٌ ولا نَباتَ فيها[4].

4) ﴿غَوْرًا﴾: (غور) تَدور كثيرٌ مِن تَصْريفاتِها على انْخِفاضٍ في الشَّيْءِ وانْحِطاطٍ[5]، ومِنْهُ قولُهُم: غارَ الماءُ غَوْرًا؛ إذا ذهَبَ في الأَرْضِ نُزولًا، والغَورُ: المُنْخَفِضُ مِنَ الأَرْضِ[6]، و﴿غَوْرًا﴾ في قولِ الله تَعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ أي: ذاهِبًا في الأَرْضِ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

فَعَسى ربّي أَن يَرزُقَني خيرًا مِن حَديقَتِكَ، ويَسْلِبَك النِّعْمَةَ بسببِ كُفْرِكَ بِهِ، ويُرْسِلَ عَلى حَديقَتِك عذابًا مِنَ السَّماء، فتُصْبِحَ أرضًا مَلْساءَ جَرْداءَ لا تَثْبُتُ عليْها قدَمٌ، ولا يَنْبُتُ فيها نباتٌ، أو يَصيرَ ماؤُها الذي تُسْقى مِنْهُ ذاهبًا في الأرضِ، فلا تَسْتَطيعُ إخْراجَهُ[8].

قُدْرَةُ الله ﷻ عَلى تَبْديلِ الأَحْوالِ وتَغْييرِها، ورِزْقِ مَن يَشاءُ كما يَشاءُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صعد).
(2) الخليل، العين، (صعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلق).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (زلق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غور).
(6) الفيومي، المصباح المنير، (غور).
(7) النسفي، مدارك التّنزيل: 2/ 302.
(8) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 298.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دِلالَةُ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ﴾:

أَثَـرُ مَعـاني الحُروفِ في بَيانِ دَقائِقِ المَعاني في السِّياق

الفاءُ في ﴿فَعَسَىٰ﴾ من قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ رابِطَةٌ لجوابِ الشَّرْطِ؛ لاقْترانِه بفِعْلِ الرَّجاء (عَسى)، وهو فِعْلٌ جامِدٌ، وما دَخَلَت عليْه الفاءُ هو جوابُ الشَّرْطِ، والمَعْنى: إنْ تَرَني أَفْقَرَ مِنْكَ، فأَنا أتوَقَّع مِن كرمِ اللّه تعالى أَنْ يَقْلِبَ الحالَ، فيُزيلَ ما بي مِنَ الفَقْرِ فيَرْزُقَني جَنَّةً خيرًا مِنْ جنَّتِكَ بسَبَبِ إيماني، ويَسْلِبَكَ نِعْمتَه ويُخَرِّبَ جنَّتَكَ بسَبَبِ كُفْرِكَ، وذهَبَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ إلى أَنَّ مَدْخولَ الفاءِ ليسَ جوابَ شَرْطٍ، وإنَّما هو قائِمٌ مَقامَ جوابِ الشَّرْطِ، والمَعْنى: إنْ تَرَني أَفْقَرَ مِنْكَ؛ فلا بَأْسَ، عَسى رَبّي أَن يُؤْتِيَني خَيْرًا مِنْ جَنَّتِك[1] والمَعْنَيانِ مُتَقارِبانِ.

مَعْنى ﴿فَعَسَىٰ﴾ ودِلالَةُ التَّعْبيرِ بها:

بيانُ دُعاءِ الرَّجُلِ المُؤْمِنِ لنَفْسِه بالخَيْرِ، وعَلى صاحِبِه الكافِرِ بالشَّرِّ

﴿فَعَسَىٰ﴾ في قَوْلِه: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ دالَّةٌ عَلى الرَّجاء؛ وحَقيقَتُهُ: طلَبُ الأَمرِ القَريبِ الحُصولِ، والمُرادُ بها مَعَ الرَّجاءِ الدُّعاءُ لنَفْسِه بالخَيْرِ وعَلى صاحِبِه الكافِرِ بالسّوء[2] وهي دالَّةٌ على حُسنِ الإيمانِ القائمِ على الرَّجاءِ وتوقُّعِ الخيرِ لا القَطْعِ به.

سِرُّ إضافَةِ اسْمِ ﴿فَعَسَىٰ﴾ إلى ياءِ المُتَكَلِّم:

مِـنْ آثـارِ اسْـمِ الرَّبِّ ﷻ إحْسانُهُ إلى العِبادِ

أُضيفَ اسمُ ﴿فَعَسَىٰ﴾ وهو ﴿رَبِّيٓ﴾ إلى ياءِ المُتَكَلِّم في قولِ اللّه ﷻ حكايةً: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لما في ذَلِكَ مِنَ الدِّلالَةِ عَلى مَزيدِ العِنايَةِ الإلَهيَّة به، فإنَّ اسْمَ الرَّبِّ دالٌّ عَلى معانٍ، مِنْها: الإحسانُ، فكأنَّهُ قالَ: فعَسى الذي عَهِدْتُ مِنْهُ الإحسانَ إليَّ في كُلِّ الأحوالِ أَنْ يُحْسِنَ إلَيَّ في هذه الحالِ أيضًا، فيُغَيِّرَ حالي مِنَ الفَقْرِ إلى الغِنى، ويُحَوِّلَ حالَكَ مِنَ الغِنى إلى الفَقْرِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 266.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 324.

الغرضُ منَ التّعبير بخبرِ ﴿فَعَسَىٰ﴾ مصدرًا مؤوَّلًا:

حُسنُ الظّنِّ باللهِ، يلائمُه التّعبيرُ بما يدلُّ على حدوث الخيرِ عاجلًا

في قولِه تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾ جاء الخبرُ مصدرًا مُؤوَّلًا، وما من ريبٍ أنّ التّعبيرَ بالفعل الّذي يُؤوَّلُ بالمصدرِ أوسعُ دلالةً وأنسبُ لحال الرَّجاء؛ لما في الفعل من لَحْظِ الزَّمنِ القريب في توقُّعِ الخير، وهو المعنى الذي يَغيبُ في حال التَّعبير بالمصدر؛ لدلالتِه على الحَدَثِ دون الزَّمَن.

الغرضُ من تنكير ﴿خَيۡرٗا﴾، في السّياق المُحكمِ:

تنكيرُ ﴿خَيۡرٗا﴾ يُفيدُ التّكثيرَ، وهو يكشفُ عن حُسن ظنّ المُؤمن بربِّه، في مقابلِ سوءِ ظنِّ الكافرِ بالمُؤمنِ، فالمؤمنُ يرجو الخيرَ الكثيرَ منَ اللهِ، في كلّ ظرفٍ وآنٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ مُضافًا لضَميرِ الخِطابِ ﴿مِّن جَنَّتِكَ﴾:

تَحْقيقُ مَعْنى الخَيْريَّةِ المؤَمَّلَةِ، ممّا يُبرزُه السّياقُ ويُجلّيه

جيءَ بالاسْمِ المَجْرورِ بـ ﴿مِّن﴾ مُضافًا إلى ضَميرِ الخِطابِ في قَوْلِ اللهِ تَعالى حكاية: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لتَحْقيقِ مَعْنى الخَيْريَّةِ التي يُؤَمِّلُ أن يُؤْتيَهُ اللهُ سبحانه إيّاها، والمَعْنى: هذه الجَنَّةُ التي لكَ وتَعْرِفُ حالَها وجَمالَها وتَدَّعي بقاءَها وعدَمَ فنائِها؛ سَيُؤْتيني اللهُ ﷻ خيرًا مِنْها.

دِلالَةُ العَطْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَيُرۡسِلَ﴾:

دُخولُ فِعْلَيِ الإيتاءِ والإرْسالِ في حَيِّزِ الرَّجاءِ

الواوُ في ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ من قَوْلِ اللهِ ﷻ حكاية: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عطفت الفعلَ على الفعْلِ ﴿يُؤۡتِيَنِ﴾ منْ قولِ اللهِ سُبحانَه: ﴿أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ﴾؛ لقَصْدِ التَّشريكِ بَيْنَهُما في الحُكْمِ الإعْرابيِّ، فكِلاهُما مَدْخولٌ لـ ﴿أَن﴾، فالفِعْلانِ في حَيِّزِ الرَّجاءِ المُسْتَفادِ من ﴿فَعَسَىٰ﴾.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُرۡسِلَ﴾:

الإيماءُ إلى شِدَّةِ قُرْبِ العَذابِ، مُبالَغَةً في التَّهْديدِ

في التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُرۡسِلَ﴾ من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ حكاية: ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تَصْويرٌ للإرْسالِ حالًا

وقْتَ الكلام؛ ليكونَ أَرْدَعَ لَهُ، والظّاهِرُ عدمُ دِلالَتِه عَلى الاسْتِمرارِ؛ لأنَّ الفِعْلَ المُضارِعِ إنَّما يَدُلُّ عَلى الاسْتِمرارِ بالقَرائِن، ولا قَرينَةَ هَهُنا، بَلِ القَرينَةُ دالَّةٌ عَلى خِلافِه؛ إذْ إنَّ إرْسالَ الحُسْبانِ مِنَ السَّماءِ عَلى الجَنَّةِ إرْسالًا واحِدًا يُفْنيها ويُهْلِكُها أَظْهَرُ في بَيانِ قُدْرَةِ اللهِ ﷻ عَلى الإهْلاكِ، فيَكونُ التَّعْبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ مُشيرًا إلى اسْتِحْضارِ الإرْسالِ حالًا وقْتَ التَّهديدِ؛ إظْهارًا لشِدَّةِ قُرْبِه حَتّى كأنَّهُ مُقارِنٌ للكَلامِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ عَلى المَفْعولِ به:

الانْفِرادُ بالعَذابِ أَشَدُّ عَلى النُّفوسِ وأَنْكى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيْهَا﴾ عَلى المَفْعولِ به ﴿حُسْبَانًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للدّلالَةِ عَلى القَصْرِ والاخْتِصاصِ، أي: يُرْسِلَ عليْها لا عَلى غَيْرِها، وهَذا أَكْمَلُ في التَّهْديدِ؛ إذِ العَذابُ لَو عمَّ جَنَّته وغَيْرَها مِنَ الجِنانِ؛ لكانَ ذَلِكَ أَدْعى إلى تَخْفيفِ مُصيبتِه؛ لما جُبِلَت عليْه النُّفوس مِنَ التَّسَلّي عَنِ المَصائِبِ العامَّةِ، بخِلافِ ما لَوِ انْفَرَد بالعَذابِ؛ فإنَّه يَكونُ أشدَّ وأَنْكى.

مَعْنى ﴿مِّنَ﴾ ودِلالَتُها في السّياق:

ابْتِداءُ العَذابِ مِنَ السَّماءِ، قَدَرٌ مِن اللهِ مقدورٌ

﴿مِّنَ﴾ في جملة: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابْتِداءِ المَكانِ، أَيْ: إنَّ السَّماءَ هيَ مَبْدَأُ لهَذا الحُسْبانِ والعذابِ، وفي تحديدِ مُبتدَأ العذاب زيادةٌ في التّخويف؛ لأنّه مِن جهةٍ لا يَملِكُ مخلوقٌ دفعَها.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

عَظَمَةُ الإهْلاكِ وإنفاذِ الوعيد، مَظهَرٌ للعظمةِ والبطشِ الشّديد

الجارُّ والمَجْرورُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، مِنْ قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ حكاية: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، في مَحَلِّ نَصْبٍ نعتٌ لـ ﴿حُسْبَانًا﴾، وفي التَّعْبيرِ بهَذا الجارِّ والمَجْرورِ، زيادَةٌ في التَّهْديدِ؛ إذِ العادَةُ جاريَةٌ بأنَّ الشَّيءَ النّازِلَ - إذا كانَ قويًّا شديدًا كالعذابِ - عَلى أحدٍ ما مِنْ فوقُ؛ دكَّهُ فسوّاهُ بالأَرْضِ أَوْ أَدْغَمَهُ فيها، فكانَ الإهْلاكُ به أَعْظَمَ وأشدَّ.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَتُصْبِحَ﴾:

الفاءُ في ﴿فَتُصْبِحَ﴾ من قَوْلِ الله حكاية: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ عاطفةٌ الفعلَ بَعْدَها (تُصْبِحَ) على الفِعْلِ الذي قَبْلَها ﴿وَيُرْسِلَ﴾، وهيَ هُنا دالَّةٌ عَلى التَّرْتيبِ مَع التَّعْقيبِ - كَما هو الأَصْلُ فيها - وفي ذَلِكَ إيماءٌ إلى سُرْعَةِ إهْلاكِ الله تعالى لجَنَّةِ هَذا الرَّجُلِ الكافِرِ، بحَيْثُ لا تَكونُ ثَمَّ مُهْلَةٌ بينَ إرْسالِه العَذابَ عليْها وبينَ صَيْرورَتِها صَعيدًا زَلَقًا.

الإيماءُ إلى سُرْعَةِ الإهْلاكِ الواقعة، على جَنَّةِ الكافِرِ اليانعة

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالإصْباحِ:

عُبِّر بلَفْظِ الإصْباحِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ في جملة: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ لكونِ التَّصبيحِ بالمُصيبةِ والعذابِ أَنْكى ما يَكونُ، فكانَ التَّعْبيرُ بها أَنْسَبَ لمَقامِ التَّهْديدِ والوعيدِ[1].

التَّصْبيحُ بالعَذابِ، أَشَدُّ ما يَكونُ عَلى النُّفوسِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾:

عُبِّر بالفِعْلِ المضارِعِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾، في قولِ الله تَعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، للدّلالَةِ عَلى اسْتِمرارِ فنائِها وهَلاكِها بَعْدَ نَضارَتِها، وأنَّها لَن تَعودَ إلى سابِقِ عَهْدِها، وذلك أبلغُ في التَّخْويفِ والتَّنْكيلِ.

المُبالَغَةُ في التَّهْديدِ والتَّخْويفِ، غايةٌ لهذا السّياقِ المُنيفِ

الغرضُ من التّعبير باسم (أصبح) ضميرًا مستترًا:

الغرضُ من مجيءِ اسْمِ (أصبح) ضميرًا مستترًا، التّناسبُ مع التّهديدِ بالعذابِ، أي: إنَّ جنّتَك الّتي دعتْكَ للكُفران، ستُصبحُ غيبًا كهذا الضّمير.

العذابُ الشّديدُ يمحو الظّهورَ، كما استترَ الضّميرُ

الغرضُ من تَنْكيرِ ﴿صَعِيدًا﴾:

نُكِّر خبرُ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ وهوَ ﴿صَعِيدًا﴾ من قَوْلِ الله ﷻ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ للدّلالَةِ عَلى التَّحقيرِ، وأنَّ هذه الجَنَّةَ بَعْدَ جَمالِها ونَضارَتِها سَتَصيرُ أَمرًا حَقيرًا، وهوَ كونُها صعيدًا مُسْتَوِيةً لا نَباتَ فيها ولا شجَرَ.

تَحَوُّلُ الجَنَّةِ مِنَ النَّضارَةِ إلى الحَقارَةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64.

سِرُّ وصْفِ الصَّعيدِ بلفظِ ﴿زَلَقًا﴾:

المُبالَغَةُ في بَيانِ مآلِ الجَنَّةِ، إظهارًا للمرادِ في السّياق

وُصِفَ الصَّعيدُ بكَوْنِه زَلَقًا في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ تَأْكيدًا لوَصْفِ الصَّعيدِ، أي: صَعيدًا تَزِلُّ عَنْها الأَقْدامُ لمَلاسَتِها؛ إذِ التَّعْبيرُ بالزَّلَقِ هو كِنايَةٌ عَن كَوْنِه خاليًا مِن كُلِّ شَجَرٍ ونَباتٍ، وفي التَّعبيرِ بالصَّعيدِ أَيْضًا مُبالَغَةٌ في بَيانِ مآلِ هذه الجَنَّة؛ ببَيانِ أَنَّها تَصيرُ أَضَرَّ أرضٍ بَعْدَ أَن كانَتْ أَنْفَعَ أرضٍ، ويُقَوّي ذلكَ التَّعْبيرُ عنِ المَفْعولِ بالمَصْدَرِ ﴿حُسْبَانًا﴾[1].

دِلالَةُ العَطْفِ بـ ﴿أَوْ﴾ في السّياقِ:

هَلاكُ الجَنَّةِ الحاصِلِ، بالقَضاءِ الإلَهيِّ الماثِلِ

﴿أَوْ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ حرفُ عَطْفٍ، عَطَفَ الفِعْلَ الذي بَعْدَها ﴿يُصْبِحَ﴾ عَلى الفِعْلِ ﴿وَيُرْسِلَ﴾ من قولِه تَعالى: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا عَلى الفِعْلِ ﴿فَتُصْبِحَ﴾ من قولِه: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾؛ لأنَّ غُؤورَ الماءِ لا يتَسَبَّب عَنِ الآفَةِ السَّماويَّةِ كالصَّواعِقِ، ويجوزُ أن يَكونَ فِعْلُ ﴿يُصْبِحَ﴾ مَعْطوفًا عَلى ﴿فَتُصْبِحَ﴾ إذا جُعِلَ الحُسبانُ هو القَضاءَ الإلَهيَّ، فحينَئذٍ يتسبَّب عَنْهُ إصْباحُ الجَنَّة صعيدًا زلَقًا، أَوْ إصْباحُ مائِها غائرًا[2]، و﴿أَوْ﴾ في الآيَةِ بمَعْنى الواوِ[3]، والمَعْنى: تُصْبِحُ صَعيدًا زَلَقًا ويُصْبِحُ ماؤُها غَوْرًا، وهَذا أَبْلَغُ في التَّهديدِ والوَعيدِ؛ حَيْثُ هَدَّده بجَمعِ أَلْوانٍ مِنَ العَذابِ عَلى جَنَّته.

سِرُّ إضافَةِ الماءِ إلى ضَميرِ الجَنَّةِ:

تَخْصيصُ العَذابِ أَبْلَغُ في الزَّجْرِ، وأوفى بالأمر

أُضيفَ اسْمُ ﴿يُصْبِحَ﴾ إلى الضَّمير العائِدِ إلى الجَنَّة، في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾، تَعْيينًا للماءِ المُرادِ صَيْرورَتُه ذاهِبًا في الأَرْضِ، وهوَ ماءُ جنَّته لا غيرُه مِنَ المياهِ، وتخصيصُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 307، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/ 518، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 223.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 180.

(3) الماورديّ، النكت والعيون: 3/ 307.

العذابِ بمُتَعَلّقاتِ شَخْصٍ ما: أبلغُ في زَجْرِ ذلك الشَّخْصِ مِنْ تعميمِ العذابِ؛ إذ تعميمُهُ يُبْعِدُ عَنِ الشَّخْصِ الاعتبارَ، ويَحْمِلُهُ عَلى ضَرْبٍ مِنَ التَّسْلِيَةِ عَنِ مُصابِهِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿غَوْرًا﴾:

شِدَّةُ غُؤُورِ الماءِ وذَهابِه في الأَرْضِ

جاء خبرُ ﴿يُصْبِحَ﴾ بصيغةِ المَصْدَرِ ﴿غَوْرًا﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ عَلى سَبيلِ المُبالغَةِ[1]، وذَلِكَ للتَّنْبيه عَلى شدَّة غُؤُورِه وذَهابِه في الأَرْضِ ذَهابًا لا يَتَأَتّى مَعَهُ اسْتِخْراجُ شَيْءٍ مِنْهُ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ ﴿غَوْرًا﴾:

تَعْظيمُ شَأْنِ غُؤُورِ الماءِ وتَهْويلُهُ

نُكِّرَ لفظُ ﴿غَوْرًا﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ تعظيمًا وتهويلًا، إذِ المعنى المرادُ بالتَّنكير: أَنْ يُصبحَ ماؤُها شَديدَ الذَّهاب في الأرضِ بحَيْثُ لا يُمكِنُ الوُصولُ إِلَيْه بحالٍ مِنَ الأَحْوالِ، وهو أَنْسَبُ لمَقامِ التَّهْديدِ.

مَعْنى الفاءِ ودِلالَتُها في ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ﴾:

اليأسُ عاقبةٌ وخيمةٌ، لمن جحَدَ قدرةَ الله العظيمةَ

الفاءُ في ﴿فَلَن﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ حرفُ عَطْفٍ[2]، وهو دالٌّ عَلى التَّفْريعِ، أي: إنَّ عدمَ اسْتطاعَتِه طلبَ الماءِ مُفَرَّعٌ عَنْ كَوْنِه غائِرًا ذاهِبًا في الأَرْضِ.

دِلالَةُ النَّفْيِ بـ (لَنْ):

تأكيدُ تحقُّقِ النَّفْيِ في مقامِ التَّيْئيسِ أدعَى لبيانِ المرادِ

جاءَ نَفْيُ قُدْرَةِ صاحِبِ الجَنَّةِ عَلى طلبِ مائِها بـ ﴿فَلَن﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ زيادَةً في تَحْقيقِ هذا النَّفْيِ[3] وتأكيدِهِ؛ إذ إِنَّ (لَن) مَوْضوعةٌ لتَوْكيدِ النَّفْيِ لا لمُطْلَقِه على القولِ الرّاجح.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 180، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 64.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 219.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 325.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾:

دَوامُ نَفْيِ القُدْرَةِ عَلى طَلَبِ الماءِ، إلّا بمرادِ الله وعونِه

عُبِّر بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾ مِن قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾؛ للدّلالَةِ عَلى الاسْتِمرارِ والدَّوامِ، والمُرادُ: دوامُ النَّفْيِ واسْتِمرارُه، أَيْ: لَن تَسْتَطيعَ للماءِ الغائِرِ طلبًا مَعَ تَطاوُلِ الأَزْمِنَةِ وامتدادِها.

سرُّ إضمارِ الفاعل ضميرَ خطابٍ:

بيانُ أنّ تغييبَ الاستطاعة، كتغييبِ الضّمير

في استِتارِ الضّميرِ الّذي هو فاعلُ ﴿تَسْتَطِيعَ﴾ إلماحةٌ إلى تغْييبِ قُدرتِه الفاعلةِ، تمامًا كما غُيِّبَ الضّميرُ، فالبناءُ التّركيبيُّ مناسبٌ للواقعِ.

سِرُّ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

خرابُ الجَنَّةِ المذكورةِ، مَنوطٌ بغُؤورِ مائِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على المَفْعولِ به ﴿طَلَبًا﴾ مِنْ قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ لقَصْدِ الاهتمامِ، أي: أنَّ الماءَ الّذي تتعلَّقُ النُّفوسُ بهِ، ولا تَصْلُحُ الجنَّةُ إلّا بهِ؛ لَنْ يتأَتّى لكَ تَحْصيلُ شَيْءٍ مِنْهُ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ المَفْعولِ به ﴿طَلَبًا﴾:

تَحقيقُ العُمومِ، في نَفْيِ الاستطاعةِ بحالٍ مِنَ الأَحْوالِ

جيءَ بالمَفْعولِ به ﴿طَلَبًا﴾ مُنَكَّرًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ تحقيقًا للعُمومِ، لوُقوعِ النَّكِرَةِ في سياقِ النَّفْيِ، فيَكونُ المَعْنى: لَنْ تَسْتَطيعَ لَهُ أيَّ طلَبٍ بحالٍ مِنَ الأَحْوالِ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بلَفْظِ الطَّلَبِ:

نَفْيُ الطّلبِ، نفيٌ لوُجدانه من بابٍ أولى

عُبِّرَ بالطَّلَبِ في قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾؛ لكونِه أَبْلَغَ في نَفْيِ تَحْصيلِ الماءِ؛ لأنَّ نَفْيَ طلَبِه نَفْيٌ لوُجْدانِه مِن بابٍ أَوْلى، فكانَ المُرادُ بنَفْيِ الطَّلَبِ: نَفْيَ اسْتِطاعَةِ الوُصولِ إلَيْهِ، وعُبِّرَ عَنْهُ بنَفْيِ الطَّلبِ إيماءً إلى أنَّهُ غيرُ مُمكِنٍ، والعاقِلُ لا يَطْلُبُ مِثْلَهُ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 267.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ من أَصْحابِ المُعْجَماتِ[1].

الإيتاءُ في الاسْتِعْمالِ القُرْآنيِّ، يَرِدُ للشَّيْءِ الكَثيرِ والأَمرِ العَظيمِ

وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[2]:

أَحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعْلِهِ، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مُطاوِعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أَنَّ الإيتاء أقوَى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعوله مِمّا لا مطاوِعَ له.

ثانيها: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاء؛ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يُنتقَلُ عنه بعد قضاء الأَرَبِ منهُ.

ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ.

وأمّا في خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ للَفْظَتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[3]:

إحداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلّا للشَّيْءِ الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ للشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ.

الأُخْرَى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ فهوَ مُطْلَقٌ.

الإرْسالُ والبَعْثُ:

البَعْثُ أَكْثَرُ مَعاني مِنَ الإرْسالِ

فَرَّقَ بَيْنَهُما جَماعَةٌ، مِنْهُم أَبو هِلالٍ، فقالَ في الفُروقِ: "يَجوزُ أَنْ يَبْعَثَ الرَّجُلُ إِلَى الآخَرِ لحاجَةٍ تَخُصُّهُ دونَكَ ودونَ المَبْعوثِ إِلَيْهِ،

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصحاح: (أتى).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27، 29.

كالصَّبيِّ تَبْعَثُهُ إِلَى المَكْتَبِ، فتَقولُ: بَعَثْتُهُ، ولا تَقولُ: أَرْسَلْتُهُ؛ لأَنَّ الإِرْسالَ لا يَكونُ إِلّا بِرِسالَةٍ وما يَجْري مَجْراها"[1].

وفرَّقَ بعضُ أهلِ العِلم بينَهُما مِن وجهٍ آخَرَ؛ وهوَ أَنَّ الإِرْسالَ أَخَصُّ مِنَ البَعْثِ؛ مِنْ جِهَةِ أَنَّ "الإِرْسالَ يُفيدُ مَعْنى البَعْثِ مَعَ العُلوِّ"[2].

وفي تفسيرِ المنارِ: تقريرٌ للفرقِ مِن جِهةٍ أُخرى؛ وهو أنّ البعث أبلغُ مِن الإرسالِ؛ "لأَنَّهُ يُفيدُ معنى الإثارةِ والإزعاجِ إلى الشّيءِ المُهِمِّ، ولم يُذكر في القُرآنِ إلّا في بعثِ الموتى، وفي الرِّسالةِ العامّةِ؛ أي: بعثِ عِدّة مِن الرُّسُلِ، وفي بعثةِ نبيِّنا وموسى خاصّةً، وكذا في بعثِ نُقباءِ بني إسرائيل، وبعثِ منِ انتقم مِنهُم وعذّبهُم وسباهُم حين أفسدوا في الأرضِ"[3] وأظهرُ مِن هذا كُلِّه ما ذكرهُ ابنُ الزُّبيرِ الغرناطيُّ مِن أنّ الفعل (أرسل) أخصُّ في بابِ الإرسالِ مِن البعثِ؛ "إذ لا يُقالُ: أرسل، إلّا فيما كان توجيهًا، فيه معنى الانتقالِ حقيقةً أو مجازًا، أمّا (بعث) فأوسعُ؛ فإنّهُ يقعُ بمعنى الإرسالِ، وبِمعنى الإحياءِ، ومِنهُ: البعثُ الأُخراويُّ"[4]، وبِناءً عليهِ؛ فالبعثُ أكثرُ معاني مِن الإرسالِ، فيلتقيانِ في معنًى، وينفردُ البعثُ بمعنًى آخر، وإذا جُمِع بينهُما فالمرادُ بذلك التّنويعُ في العِبارةِ والتّفنُّنُ فيها.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/ 176.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/ 302.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 34.
(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/ 216.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»